الساعة والانسان

قصة بقلم سميرة عزام

الساعة لما تبلغ الرابعة صباحا ، استيقظت قبل الموعد بعشرين دقيقة، لماذا لا اقول انني لم اذق النوم ليلتئذ ؟. تجربة العمل التي تنتظرني في الغد مثيرة ، وقفت طويلا قبل ان انام امام البذلتين اللتين املكهما.. كان علي ان اختار واحدة .. آثرت الرمادية فقالت امي « لقد لبستها حين قابلت المدير .. فالبس الاخرى .. عجيب كيف تستطيع النساء تذكر هذه التفاصيل ، لقد نسيت انا ايهما كنت لابسا .. وربطت الساعة الصغيرة لتطلق رنينها في الرابعة صباحا فاستيقظ ، وخشيت ان تخذلني فجربتها ثلاث مرات ، واوصيت امي بان توقظني فتطوعت عمتي واختي وابي جميعا .. كانت فرحة الوظيفة فرحة العائلة .. والواقع انني لم انم تماما في تلك الليلة .. وحين انبعث الرنين المجلجل من الساعة ، قفزت من فراشي ، وقفزت امي وعمتي واختي ، واحدة لتسخن لي ماء للحلاقة ، وعمتي لتعد لي مائدة لم اعرف مثل سخائها قبل ان اصبح موظفا .. اما اختي فشغلت بحذائي تلمعه .. ووقفت في الحمام افرش وجهي برغوة صابون الحلاقة ، واغطي اضطرابي بلحن اصفره ، حين سمعنا قرعا رصينا على باب الدار .. فسارعت عمتي اليه ثم ترددت .. اذ تذكرت ان نهار الناس لم يبدأ بعد . فسارعت انا ولكنني حين بلغت الباب ترددت انا الاخر .. واستجمعت نفسي لاسأل من .. ومن وراء الدفتين الملتحمتين سمعت من يقول : هل استيقظت يا سيد فتحي ؟.

ومددت يدي الى اكرة الباب اعالجها ، ولما فتح الباب كان الطارق قد عاد ادراجه فلم استطع ان اتبين من خلل السواد اكثر من كومة تتحرك بعيدا عن الدار .. وعدت اتم حلاقتي متعجبا ، ولم تضع عمتي الفرصة لتدلل على ذكائها فقالت بلهجة لاينقصها اليقين .. « لابد ان وظيفة فتحي « مهمة » والا فلماذا توقظه الحكومة ..؟ »

واستمرأ غروري ان يقبل تعليلها بلا تردد .. وخالطني احساس بالاهمية وانا ارتدي ثيابي وابتلع البيضتين في لقمتين .. وازجراختي وهي تصب في اذني نصائحها .. ثم اشد نفسي بالمعطف .. وانطلق الى الباب ودعوات عمتي تصفع ظهري من خلل الباب المشقوق فلا يغيب صوتها الا في ثنايا صوت المؤذن الذي ارتفع منطلقا على مداه في تموجات خالطها شيء من بياض الفجر فيقع في اذان السارين نديا مأنوسا باعثا على انبساط الملامح المتقلصة من لسعات الريح .

« الصلاة خير من النوم » .

ولكن مدينتي كانت نائمة ،ولاول مرة شعرت بضوضاء حذائي على الارض المبلطة وانا استحث قدمي لالحق بصبي فران اختفى راسه حتى الاذنين في لبدة عجيبة ..

كانت محطة القطار .. او «السكة» كما نسميها تقع في ظاهر « عكا » كان قيامها حدثا تمرد على اسوارها التاريخية العريقة .. وتمركز على بعد حوالي الكيلو مترين من البوابة الجنوبية للمدينة ، وعلينا قبل ان نبلغ البوابة ان نمر بخان اثري .. هو في النهار مركز ناشط لتجارة الحبوب ومال القبان ، واهله خليط من التجار والسماسرة والدواب .. كان الحمار يمد فمه الى فم اي كيس حبوب مفتوح على مدخل دكان ، هو ينتظر ان تنتهي المساومة بين صاحبه والتاجر على وجه من الوجوه .

ولكن الخان كان حين اجتزته في ذلك الفجر ساكتا خاليا من السابلة.. وقد داخلتني وحشة فحاولت ان اركض ، ولكنني تذكرت انني غدوت موظفا فاتادت ، واجتزت الخان ونفذت من البوابة وقطعت المسافة بين البوابة والسكة نشطا .. ثم ولجت احدى عربات القطار وابرزت للمرة الاولى البطاقة المجانية التي زودتني بها الادارة . ولعل البطاقة قد لفتت نظر شابين جلسا في المقعد المقابل الا انهما لم يحاولا استيضاحي كما لم اجد في نفسي الجرأة على ان اتقحم ، فشغلت بتأمل المسافات التي تنطوي امامي بسرعة وقد بدا الفجر يوشحها بألق الصباح .

ان يوم العمل الاول تجربة غير يسيرة .. فهناك النظرات المتفحصة او المتسائلة .. او المستنكرة او المستخفة .. هناك ملفات كلها غموض.. ارقام لا اول لها ولا اخر .. رموز يتعين علي ان اعيها ، لقد تقلص غروري .. لم اعد اكثر من نكرة في دائرة جبارة محشودة .. لو راتني عمتي لراجعت نفسها واستكثرت علي ان آكل بيضتين مرة واحدة .. لقد افترضت ــ وقد جاء من يوقظني ــ ان اكون مهما ، ولكنني في يومي الاول لست اكثر من هر خائف .. امام كلب شرس . ولقد اكلت البيضتين في فجر اليوم التالي حين جاء الصوت يوقظني .. وقد اشعرني نداؤه بالاهمية حتى انني لم ابال بفتح الباب .. لاتمتم باية كلمة شكر تخطر لي ..

نحن في احيان كثيرة نستمريء تعليلاتنا فلا نناقشها مرتين .. وقد افلحتعشرة أشهر في اذابة كتلةالثلج التي يقيمها القدامى ازاءالزملاء كل فجر ، دون محاولة مني حتى لفتح الباب لاستقبل صوته بشيء من

وكانت اكثر من مفاجأة لي حين سمعت زميلا من زملائي ــ بعد ان افلحت عشرة شهر في اذابة كتلة الثلج التي يقيمها القدامى ازاء الزملاء الجدد ــ يقول بان طرقات ابي فؤاد هي اكثر انضباطا من ساعة .. والا لتكلف ، اذ تاخذه نومة الصبح ، ان يركب يوميا سيارة توصله الى مركز العمل في حيفا اذ يفوته القطار ..

ولاول مرة شعرت ان طارق الفجر يمكن ان يكون له اسم وشخصية وظروف وملامح .. لم يكن حتى الساعة بالنسبة لي اكثر من صوت يردد في كل فجر عبارة واحدة لا تختلف .. ولكنني اكتشفت اليوم بالصدفة ان له اسما .. وافترضت ضرورة ان يكون له وجه ايضا ..

وحين طرق بابنا في اليوم التالي كنت اسرع من رجليه ففتحت الباب. واذ رآني رد على تحيتي بلا حماسة ثم قال : « انت فتحي ؟ » .

كان رجلا في منتصف عمره ، يختفي تحت معطف اسود وطربوش تركي قاتم .. وفي هيئته ما يوحي بانه اكثر من يد تمتد لتطرق الابواب في موعد معين لا يتاخر او يتقدم ..

ووجدت نفسي مسوقا الى ان اقول « تفضل » فاعتذر .. قال ان عليه ان يوقظ فسان وعبد الله ويوسف .. وتركني لحيرتي واستدار فابتلعته عتمة الطريق ..

ولكنني وانا في القطار في طريقي الى العمل حاولت ــ في حديثي مع عبد الله الذي صار صديقا لي ــ ان اشخصه .. فوجدت نفسي امام قصة عجيبة ومؤثرة حقا .. لم تكن جديدة علي ..

ان بلدتنا صغيرة .. وقصصها مشاع لكل اهلها .. وهم طيبون بحيث يحزنون ، ولقد حزنا جميعا امي وعمتي واختي وانا... وجيراننا الذين سهروا عندنا عشية تلقفت البلدة قصة ملفوفة بكل ظروف المأساة .. قصة فؤاد موظف سكة الحديد الذي بلغ المحطة متاخرا ، وكان القطار قد اخذ بالتحرك .. فتعلق بباب العربة محاولا الصعود .. ولكن يده خذلته فافلت الحاجز .. وسقط تحت العجلات .. وغدا الشباب الغض كتلة مختلطة المعالم تحت عجلات ليس لها قلب .

وحين حزنت البلدة وعاشت اسبوعا تلوك دراما اللحم والحديد ،عرفنا ان ابا الفتيل تاجر خيوط .. له دكان صغيرة في سوق القماش .. عدتها صفائر معلقة من خيوط ملونة وميزان لفت نظري حجمه الصغير.. حين كلفتني عمتي ان اشترى لها قدر « درهمين » من الخيوط الحريرية الصفراء .. تعلقها بطرف منديل « الاويه » الذي تتغاوى بلبسه .

وتاريخ القصة يعود الى ماقبل عامين .. وحين عاودتني بكل التفاصيل

التي كنت قد سمعتها نسيت أن أسأل صاحبي .. عن علاقة هذا كله بالمهمة التي يقوم بها الاب في ايقاظ الموظفين .. ولكنني لم استطع ان اخنق فضولي حتى المساء فتركت مكتبي وقصدت عبد الله لاعهد مع لدنه بحزن يفوق الحزن الذي اذكر انني حزنته عشية سمعنا بموت الفتى على تلك الصورة البشعة ... فالاب الذي فقد ولده الوحيد آلى على نفسه ان ينهض في كل فجر ، ويطوف على زملاء ابنه يوقظهم واحدا واحدا فلا يتأخروا عن القطار .. ولا يتكتلوا لحما ودما تحت عجلاته ..

وحملت قصتي لاهلي ونحن على مائدة العشاء .. وارتضيت ان تنحسر اهميتي من عيونهم وأنا اكشف سر الطارق .. لقد بكت امي.. وزوت عمتي مابين عينيها انفعلت بلا دموع ولكنها لم تكف عن المضغ قط .. ولكنها اجتهدت في ان تبدو متعاطفة في صباح اليوم التالي .. فنهضت ـ وكانت قد كفت عن النهوض لتحضير افطاري بعد انقضاء اسبوع على عملي ـ وما ان طرق الباب حتى اسرعت تفتحه بعد ان غطت اكثر وجهها بنقابها الابيض ، وحملت دلة قهوة وفنجانا ، واقسمت ان يشرب الرجل قهوتنا ولو واقفا على الباب ..

كان ذلك قبل اسبوع واحد من ذلك الفجر الشتائي الفارس الذي تدفقت فيه مياه المزاريب تغسل الازقة المبلطة وتتجمع في الاخاديد التي حفرها الزمن بين البلاطة والاخرى ..

ولم اكن قد ربطت ساعتي .. بل الواقع انني كففت عن ذلك مذ تأكدت ان الطارق لايقل انضباطا عنها .. ولقد كنت مستمتعا بالدفء تحت لحافي كقطة تتكوم امام مدفأة .. مؤجلا قيامي حتى اسمع الطرقة على الباب ، وحين بلغتني نفضت عني اللحاف ولكنني لم احفل بالنظر الى ساعتي وارتديت ثيابي والتهمت افطاري وفتحت الباب لافاجأ بالرجل واقفا يحاول ان يتقي الرذاذ الخفيف والقطرات المتساقطة عن حفافي الاسطح بوقوفه تحت ظلة الباب ...

قلت له وانا امرق من الباب مسرعا ـ صباح مطير اليس كذلك ؟..

ـ فقال وكانه يعتذر عن وقوفه :

ـ لم اقف بسبب المطر .. الواقع انني تأخرت قليلا عليك . لقد اخذتني غفوة .. وقد يكون هذا المطر قد اخرني قليلا .. لقد بدات اليوم باخوانك وانتهيت بك .. اركض يا ابني .. فليس لديك لتبلغ المحطة سوى عشر دقائق ..

وتحت المصباح المجلل بالرطوبة اتأدت قليلا لاتأكد من الوقت .. كان هناك تسع دقائق .. تكاد لا تكفي لابلغ البوابة .. وجمعت قوتي ودفعت بها الى قدمي اقطع الطريق مهرولا .. وضاعفت من سرعتي حين انتهيت من الازقة المبلطة ومن الخان المسقوف .. وكلما حاولت ان اقف لالتقط انفاسي .. تصدت لعيني كتلة مختلطة من الدم واللحم .. كانت قبل ان يهرسها القطار انسانا له مثلي قدمان سويتان .. يسعى بهما الى وظيفة في دائرة سكة الحديد ... فاستشعر في فمي طعم مأساة .. واحس ان لقدمي قوة غريبة ..

وبلغت القطار وهو واقف لم يتحرك واستطعت ان اصعد وان آخذ مكاني لاهث الانفاس .. وكان خليقا بالقطار ان يمشي بعد ان وصلت .. فالمهم الا اسقط تحت العجلات .. ولكن القطار لم يسر.. وفهمنا ان خللا بسيطا طارئا يحتاج الى دقائق قد منع القطار عن التحرك كما هي العادة حين ينتهي عقرب الساعة الكبير من دورته التي لا يتعب منها قط ..

ومن خلال نافذة القطار المفتوحة .. كانت الحقول تشرب المطر فتتكسر اعناق الاعشاب تحت وطأة قطراته المثقلة ، وكانت المحطة التي لا تنام تغص بالحمالين الذين انتهوا من نقل الامتعة او البضائع فجلسوا على الافريز يرشفون اكواب الشاي ويتفلون .. وكنت اركز عيني على الباب .. اتأمل بائع الكعك والبيض حين رأيت الرجل الطارق .. يبدو لي من خلال الباب وهو يمسح وجهه وينفض طربوشه المبلل ويلتقط انفاسه بصعوبة ..

ما الذي اتى به الى المحطة ؟ اهو مسافر اليوم ؟ ام انه خشي ان يفوتني القطار ، فعدا خلفي ليطمئن على وصولي ؟... ولم استطع ان اقطع بشيء ، اذ علا الصفير الاجش يشق جو الفجر الرمادي الضبابي ... وصرّت العجلات على الخط ، وعلا ضجيج دورانها... وابتعدت عن المحطة ، واوغلت في الابتعاد .. فلم تعد هذه امام عيني سوى نقطة سوداء .. تمحي معها تفاصيل كثيرة .

حين سمعت الطرق على بابنا في فجر اليوم التالي .. خطرت لي كل تفاصيل الامس ... وشعرت بالارتياح لان الركض لم يؤذ الرجل وهو يلحق بي للمحطة تحت سماء مطيرة ..

ولذا لم اربط بين عنائه ذاك وبين عدم طرقه بابي بعد يومين.. لقد اعتقدت ان طرقاته قد تلاشت مع لغط البريموس في مطبخنا القديم ، ولكنني تأكدت من عدم حضوره حين سمعت عبدالله في القطار يتساءل عن السبب ..

ولم يحضر في اليوم الثاني ولا الثالث ... وكان استغرابنا وتساؤلنا هو الموضوع الذي شغلنا طوال طريق العودة عصرا ، والذي انتهى بتكليفي ان اسال عنه في دكانه الصغيرة بسوق القماش .. ولقد قصدت السوق قبل ان امر بالبيت ، واضطررت ان اسأل مرتين عن موقع دكانه بالضبط ، ولما بلغتها كانت مغلقة ، والعارضة الحديدية في مكانها ، فسألت جاره فقال : « مسافر او مريض .. هو قليل الكلام ، ونحن لا نسال .. اذا كنت تبغي شيئا من بضاعته فلدي مثلها واحسن ... »

وحملت الخبر لعبدالله واتفقنا على ان نبحث عن بيته في الغد .. فقد افتقدناه حقا .. وكنت اكثر الجميع انزعاجا .. فقد خشيت ان اكون سببا في وعكة المت به .. ولما رحنا في الغد نفتش عن بيته بعد ان سألنا عن موقعه التقريبي ، انتهى الامر بنا عند باب خشبي فهمنا انه يوصل الى باحة تقع بعدها الغرفتان اللتان يسكنهما الرجل .. ولقد سألنا ولدين التفا حولنا عما اذا كان الرجل قد مر في الشارع اليوم فانكرا ذلك . وهمّ عبدالله بالرجوع.. لقد آثر ان يرجئ سفره ، ولكنني لم اقتنع .. لم يكن بوسعي ان ابرر عدم اقتناعي بشيء .. مجرد احساس قوي دفعني الى ان اعالج الباب الخارجي فانفتح .. وكانت هناك ساحة مبلطة في وسطها بركة صغيرة ، وقد قامت على الطرف غير المبلط شجرات فتنة عاريات من الاوراق .. وامامي انتصب باب آخر ... لم يثبت بالعارضة الحديدية المتدلية من طرف احد الدفتين .. وطرقت الباب فرد علي الصمت ، وقرعت ثانية واشترك عبدالله معي ... وأثار الصوت امرأة تدلت من احدى نوافذ بيت مجاور يشرف على الباحة فوقفت ترقبنا بفضول .. وعدنا نقرع .. وقال عبدالله وهو يتحسس قبضته: « أفضل لنا ان نعود » . ولكنني رفضت ، لقد ثار في الهاجس الخفي واوجعني ذلك الايلام في ضميري ، فمددت يدي اعالج الاكرة فلم تنفتح، فاتكأت على الباب وبكل القوة التي يحملها ظهري رحت ادفعه .. وكنت موشكا على السقوط من اثر دفعة قوية .. فعرفت ان الباب قد فتح ..

ودخلت بعد ان رفض عبدالله الدخول ، ووقف ينتظرني عند الباب الخارجي ليدلل على انه لا شأن له بكل هذا التقحم ..

كانت هناك غرفة في وسطها مائدة عليها كسرات من خبز وبقايا طعام في طبق ، تفضي الى غرفة اخرى داخلية ، فيها سريران من الحديد الاسود ، واحد منسق مفروش ببطانية رمادية ، ولقد خمنت ان يكون للفتى الميت ، اما الاخر فقد كانت الاغطية متكومة فوقه ... فاستجمعت شجاعتي لابلغه فخانتني حين طالعني وجه فاغر الفم وعينان زجاجيتان ...

كان الرجل ميتا ... ككل شيء اخر في الغرفة .. الخزانة الصغيرة القاتمة .. والديوان المفروش ببساط مخطط ... والمرآة المنقّطة ببقع صفراء كأنها كلف على وجه بشع ...

ولم يكن هناك شيء حي .. بلى كانت هناك ساعة حائط ... تقوم في الجدار ... رقاصها يميل ، وصوتها يقول تك تك تك ...

سميرة عزام